الأديان المختلفة وتعارُضات الحقيقة

جون هيك

إلى وقتٍ قريبٍ نسبياً كانت سائر أديان العالم تتطور وهي على جهلٍ حقيقي بغيرها من الأديان، حتى جرت حركات توسع كبرى أدّت إلى تواصُل بين الأديان. وأهم تلك التطورات توسع البوذية خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، والقرون الأولى للمسيحية، والتي حملت رسالتها إلى الهند وجنوب شرق آسيا والصين والتيبت واليابان، ثم ولادة الديانة الهندوسية على حساب البوذية، والتي أخرجت البوذية من الهند تقريباً. وكانت هناك تفاعُلاتٌ أُخرى من مثل انتشار الإسلام في القرنين السابع والثامن للميلاد في المشرق وأوروبا والهند، ثم الانتشار الثاني للمسيحية عبر التبشير في القرن التاسع عشر، وما أدى الانتشار المتجاور والمتقاطع للإسلام والمسيحية إلى حوارٍ حقيقي بينهما؛ بل كان الانتشار على خلفية صراعٍ مستمر، وفي الأعوام

هذا فصل من كتاب John Hick: Philosophy of Religion, 2005, 2009

المائـة الأخيرة جعلت الدراسات الأكاديمية الفهـم المتبادل للأديان بعضها مع بعضـ ممكناً. ومع هـذا التقابل المعروف بـرزت الادّعـاءات المتبادلة للحقيقة كمـا تطرحهـا الأديان المختلفة، وقد صـار هذا الموضوع علـى مفكرة فلاسفة الديـن. والمشكلة كما يلـي: لو وُلدتُ في الهند فيمكن أن أَكـونَ هندوسياً، وفي مصر يمكن أن أكون مسلماً، وفي سيريلانكا يمكن أن أكون بوذياً؛ لكنني وُلدت فـي بريطانيا والمتوقَّع أن أكون مسيحيـاً (وأنا مختلفٌ بالفعل، لكنّ هذا يحدث أيضـاً). تقول كـل هذه الأديان أشيـاء متعارضة عن طبيعـة الحقيقة المطلقة، وعن مظاهر وتجليات المشيئة الإلهية، وعن طبيعة ومصير الجنس البشري: هل الطبيعـة الإلهية شخصيـة أم غير شخصية؟ وهل يولد البشـر مراتٍ عدةً على الأرض؟ وهل النفس المحسوسة الآثار هي الحقيقية، وهل تَخْلُدُ إلى جوار اللّه؟ وهـل التـوراة والإنجيل والقرآن والباغافادغيتا هي كلمـات اللّه؟ وإذا كان الأمر كذلـك فإنّ مـا تقوله المسيحية إن صدقنـاه يجعل ما تقولـه الهندوسية زائفاً، ومـا تقولـه الهندوسية إن كـان صحيحاً فمعنى ذلك أنّ مـا يقوله الإسلام غير صحيـح إلى حدٍ كبير. وهكذا فإنّ مـا تقوله الأديان المختلفة لا يمكن أن يكون صحيحـاً كلـه. وقد يصل غير المؤمنيـن بأحدها إلى أنها جميعـاً زائفة، وهذا مـا آمن به ديڤيد هيـوم، الذي ذهب إلى أنّ التناقض بيـن الديانات يعني أنها جميعاً لا تقوم على أُسُس سليمة. وفي كل الأديان معجزات؛ إنما لا يمكن القول: إنّ المعجـزة هنـا هـي أقوى من المعجـزة هناك، وفي النهاية فـإنّ كل معجزةٍ تُبطل المعجزات الأُخرى، وهذا كله يدعو إلى الشك في الأديان أو في ادعاءاتها الاستئثار بالحقيقة.

مفهوم الدين: يعترض ولفرد كانتويل سميث في كتابه القيم: (**معنى الدين وغاياته**) على المفهوم السائد لمفرد **الدين** باعتباره في نظر أصحابه متضمناً الحقيقة المطلقة، ويذهب إلى أن الدين أو الكيان المحسوس الذي يمكن اقتفاء أثره تاريخياً ومسحه جغرافياً هو ظاهرةٌ إنسانية، فالمسيحية والبوذية وغيرهما

هـي صناعـات بشرية، يشكِّل تاريخها جزءًا من التـراث الإنساني الأَوسع، ومنذ عصـر التنويـر صار مفهوم الديـن نسبياً وعرضـةً للصدق أو الكـذب. والواقع ـ بحسـب سميـث ـ أنه باستثناء الإسـلام؛ فإنَ كلَّ المفاهيم حـول الأديان هي مفاهيم تكونت في القرن الثامن عشر وما بعده، وفُرضت على العالم من خلال التأثيـر الغربـي. وهكذا فإنَّ كل دينٍ من أديان العالم يـرى في الأديان الأُخرى منافساً في الاعتقاد والانتشار. إنما بدل التفكير في الأديان ـ باعتبارها منظمات اعتقاديـة حصرية ـ يمكننـا أيضاً أن ننظر إلى الحيـاة الدينية للناس بوصفها سلسلـة ديناميكية متصلة حضرت فيها بعض الاضطرابات الكبرى التي أنتجت لحظـات دينية خلّاقة في تاريـخ البشر، وكونت أكثر التقاليد الدينية تميزاً. أما اللاهوتيـون فينظرون إلى تلـك اللحظات على أنها مظاهر للنعمة الإلهيـة، والاستجابة البشرية بحيث تركـت آثارهـا على مجـرى الحيـاة الإنسانية. لقد اتضـح مثلاً أنّ المسيحية تطورت من خلال عوامل دينيـة وغير دينيـة؛ إذ تكونـت الأفـكار المسيحية الكبـرى ضمن الإطـار الفكري النابع مـن الفلسفة اليونانيـة. أمـا الكاثوليكيـة فقد صيغـت كمؤسسة مـن قبل الإمبراطورية الرومانية ونظامها القانونـي، والعقل الكاثوليكي هو عقلٌ متوسطـي لاتينـي، أما العقـل البروتستانتي فيعكـس شيئاً من التـراث الألماني الشمالـي، وهكذا. ويحـدث التواصل بين المسيحية التاريخيـة وحياة البشر في النصف الغربي من الكرة الأرضية، والنموذج المسيحي ينطبق على سائر الأديان في إطار خصوصية كل دين، فالحديث عن صحة أو زيف دينٍ من الأديان ليس أكثر ملاءمة من الحديث عن صحة أو زيف تاريخ حضارة من الحضارات. ويرى ولفريـد كانتويل سميث ـ بناءً على النظـرة السابقة ـ أنّ الأديان في منظوماتها الاعتقادية، والشرائع التي هي جلدها، تعكس اختلاف الأمزجة والذهنية والنماذج

في ديانات الوحي المباشر كالمسيحية والإسلام واليهودية الأُلوهية مشخَّصة؛ بينما في ديانات أُخرى لا شخصنة للحقيقة الإلهية

البشرية. والحديث عنها يشبه الحديث عن الفروق بين العقلية الشرقية والأُخرى الغربيــة، وفي رأي سميث أنّ هذه الخصائص في الديانات تكونت بسبب العزلة النسبية التي كانت سائدةً في العالم، أَمَا وقد تواصل العالم بهذه الطرائق كلّها، فمــاذا سيكون تأثير ذلك على الخصوصيات التاريخية للأديان، وعلى ادعاءاتها للحقيقة، وعلى العلاقات فيما بينها؟!

الحـل الممكـن: هناك حتمية تاريخية للتعددية الدينيــة، لكنها متعذرة في المستقبــل. في الحيــاة البدائية التفت الإنسان إلى ظواهــر الطبيعة، ورمى إلى إرضائهــا، وهكــذا فُهمت الحقيقة الدينيــة باعتبارها جمعاً مــن القوى الشبيهة بالحيوانــات. وفي المرحلة الثانية عندما تجمعــت القبائل وأنشأت إمبراطوريات حربيــة، جــاء ترتيــب الآلهة بشكل هرمــي، وسادت فــي الشرق الأوســط الآلهة القوميــة الكبرى مثل عشتروت السومرية، وآمون فــي طيبة، ويهوه في إسرائيل، ومردوك في بابل، وزيوس في اليونان، وآلهة الفيدا في الهند. وكانت تلك الآلهة قاسيــة ودموية، وتتطلب أحياناً أضاحــي بشرية، وفي كلا المرحلتين كان هناك نمــوٌّ للديــن الطبيعي، وعبــادة روحية تعبر عن الخوف من القــوى الطبيعية، ثم صــار الأمر عبادة لآلهة المناطــق (الشمس أو السماء.. إلخ). إنما حوالي العام 1000 ق.م بــزغ العصر الذهبي للإبداع الدينــي، وهو العصر الذي يسميه كارل ياسبــرز: المرحلــة المحوريــة، وتتميز هــذه المرحلة بظهور فكــرة الوحي، التي طهّــرت مفهــوم الأُلوهية. وكما يقــول Bouquet فإنّ هؤلاء الأشخاص التأمليين الذيــن ظهروا منذ القــرن الثامن قبل الميلاد صنعوا نوعاً من التفكير الإنساني قائمــاً علــى سماع كلمة الله مــن وراء الحُجُب والخضوع لها، مثــل كبار الأنبياء العبرانييــن. وبيــن القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد ظهر زرادشت في فارس وفيثاغورســ في اليونان وسقراط وأفلاطون وأرسطو، وكونفوشيوس في الصين، والأوبانيشــاد وبــوذا في الهند. ثــم إنّ المسيحية والإســلام لا يمكن فهمهما إلّا بالنظر إلى تلك المرحلة المحورية. ولأنّ البشر كانوا منعزلين بعضهم عن بعض،

فقـد كانت التعددية الدينيــة ضرورية. وكان هناك تأثير متبادل بالطبع؛ بَيْدَ أنّ الطابـع العام كان الانفصــال والإصغاء للبيئات الخاصة. وفـي الإطار المحوري هــذا ظهرت الأديان الكبرى الباقية. وينبغـي التمييز بين إشراقات الوحي وبين الأفكار الفلسفيــة والرؤيوية؛ لكنّ اللحظتين تتراكبان في الأديان، بحيث يصعُبُ استنتاج أيهما ظهر أولاً وأثّر في الآخَر. وإذا مضينا أكثر نلاحظ أنّ هذه الأديان ـ رغم تناقُضها ـ إنما تبحث في الموضوع نفسه: موضوع الحقيقة.

إنّ التواصُـل الحالـي سـوف يغيـر سائر الأديـان، وهناك مـن يراهن على زوالها، وهذا ممكن؛ إنما المرجَّح أنه رغم العلمنة الشاملة؛ فإنّ الإنسان سوف يختبر على الدوام شعوراً بالمتعالي يرفعه ويقلقه في آن. ومن مظاهر التغيرات هذه التفتت الطوائفي في الأديان؛ إنما بالنظر إلى ما شهدناه في أواخر القرن العشريـن، كيـف سيكون تأثير التواصـل والاندماج العالمي علـى الأديان؟ وعلى دعـاوى الحقيقة؟ الفروق الرئيسة بيـن الأديان ثلاثة: فروق في اختبار الحقيقة الإلهيــة وهـل هــي شخصية أو غيـر شخصية، وفـروق في النظريــة أو العقيدة الفلسفيــة واللاهوتيــة، وفروق في التجـارب الأساسية التي تُوجِـدُ مجرىً واحداً للحيـاة الدينية. ففـي ديانات الوحي المباشـر كالمسيحية والإسـلام واليهودية الأُلوهية مشخَّصة؛ بينما في ديانات أُخرى لا شخصنة للحقيقة الإلهية، وهناك ديانـات تنتفـي فيها الحقيقــة الإلهية. أمـا الفروق من النوع الثانـي ذات البعد اللاهوتي والفلسفي، فالتعارضات فيها غير واضحة، ولذا فقد تتضاءل أو تنتهي في يومٍ ما. وعلى سبيل المثال هناك لاهوت مسيحي جديد بعد دارون وآينشتاين وفرويـد، وفـي الديانات الأخرى سيكـون هناك تعرض للعلـوم الحديثة، كما أنّ الأديـان سيتأثر بعضها ببعضـ بسبب التواصُل المتزايد. أمـا الفروق من النوع الثالـث فهـي أصعب؛ لأنها تعني المجرى العقدي، والكتـب المقدَّسة، وما عادت هــذه العقائد تستجيب للظروف المتغيرة؛ لكـنّ تغييرها غير متيسِّر؛ وذلك مثل فكـرة الفداء في المسيحية، والمقصــورة على المسيحيين أو المؤمنين بالمسيح

بعـد ظهوره، وهـذا يعني هلاك البشريـة قبله، وهلاك غيـر المؤمنين به، وقد حـاول آباء الكنيسة إصلاح الأمر في المجتمع الڤاتيكاني الثاني (1963 ـ 1965)؛ لكنّ الحلَّ ظلَّ قاصراً.

إطـار فلسفي للتعدديـة الدينية: هناك فكرة في سائر الأديان أنّ الحقيقة المطلقـة متعالية وعصية علـى الإدراك، وأنّ المُدْرَك ولو كان مجرَّداً فهو أسير ظروف الزمان والمكان والمحدودية البشرية. ونلاحظ ذلك لدى الهندوس ولدى مايستر إيكهـارت المتصوف الألماني، وكابالا اليهـود، والتصوف الإسلامي؛ بل إنّ باول تيليش تحدث عن الإله الذي يعلو إله المؤمنين، وميّز غوردون كاوفمان بيـن الإلـه الحقيقي والإله المُتاح. وهذه الفكرة تتيـح تقارباً ملحوظاً، فالحقيقة المطلقـة واحـدة، وإدراكاتهـا الإنسانية متعددة. وقد ميّز كانـط بين العالم في ذاتـه، والعالـم كما يتبدى للوعـي الإنساني: فهـل يمكن تبنّـي التمييز الكانطي الواسـع بيـن العالم في ذاته، والعالم كما يبدو لنـا من خلال أدواتنا المعرفية، وتطبيق الأمر على الحقيقة المطلقة والإدراك البشري المتفاوت لتلك الحقيقة؟! إذا كـان الأمر كذلـك، يكون علينا أن نرى الإله الموجـود واحداً في ذاته، وهو كما يتبدى لنا متعدد ومختلف.

فالذي نراه في الخلاصة أنّ المقولة التي تذهب إلى أنّ جميع الأديان تخضع لتجربة مماثلة؛ لكنها تتحدث عنها بلغات دينية مختلفة؛ غير ملائمة فيما نحن بصـدده من شرعنةٍ للتعددية، وفي الوقت نفسـه تعظيم القواسم المشتركة. بل الأَولى الذهاب إلى أنّ الأديان تخضع لتجارب مختلفة (حتى لو كانت لها ملامح مشتركة)، وتكـون الفروق نتيجةً للإطارات المفهومية والسلوك التأملي الموجود فـي العقائد الدينية التـي يشاركون فيها. وبذلك تكون الفرضية الممكنة والأكثر جاذبية ـ بديلاً لكل أنواع الشك ـ أنّ المعتقدات الدينية الكبرى في العالم يمثّل كلٌّ منها فهماً مختلفاً واستجابة الحقيقة الإلهية نفسها.